

النخبة الاندماجية الجزائرية وقضية التجنيد الإجباري (1912- 1918 م) وهم الفرنسية وفشل التحديث

The integrationist elite in Algeria and the issue of forced recruitment (1912-1918), namely the French and the failure of modernization

سعودي أحمد

أستاذ محاضر "أ"

كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية والحضارة، جامعة عمارثليجي – الأغواط

saoudiahmed67@gmail.com

ملخص: شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ميلادي في الجزائر تشكل العديد من النخب ذات التوجهات المختلفة ، بل والمتضادة أحيانا وعلى رأسها النخبتان المحافظة والمجددة مع ما تحمله كل واحدة منهما من خصائص ومميزات ، واللتين تطورتا إلى ما صار يعرف تاريخيا بالتيار الاندماجي والتيار المحافظ ، وبقدر ما كانت منابع ومصادر ثقافة الطرفين منذ البداية هي العامل الأساسي في رسم فلسفتهم ونشاطهما ، بين تيار اندماجي ذو ثقافية غربية عموما وفرنسية على وجه الخصوص مطالب بتحديث المجتمع الجزائري وفق ما تتيحه الثقافة الغربية من أدوات المواطنة والتي ارتسمت بشكل كبير في ظل مبادئ الثورة الفرنسية 1789م، من مساواة وعدالة وأخوة وعدالة وغيرها ، ليتمكن الجزائريون حسيهم من نيل حقوقهم في ظل المواطنة الفرنسية المنشودة، وبين تيار محافظ يرى النجاة في تمسك الجزائريين بمعالم شخصيتهم الواضحة والتي يسعى المستعمر الفرنسي لطمسها ، والمتمثلة في الدين الإسلامي والثقافة ذات التوجه العربي الإسلامي ، وبالتالي رفض كل محاولات التجنيس والاندماج والفرنسة.

إضافة إلى تلك المحددات، كانت تحدث بين الفينة والأخرى، أحداث أو قضايا على المستويين الداخلي أو الخارجي كثيرا ما تثير نوعا من السجال والجدال بين الطرفين، ومنها قضية التجنيد الإجباري سنة 1912م، والتي سنتعرض في هذا المقال لموقف أحد الطرفين منه، ألا وهو التيار الاندماجي من خلال مجموعة من الشخصيات التي تمثله، وعبر مجموعة من التساؤلات.

فما موقف الاندماجين من قانون التجنيد الإجباري؟ وما هي دوافع هذا الموقف، وهل حقق الاندماجيون أهدافهم من موقفهم هذا؟ وكيف تعاملت السلطات الفرنسية مع أولئك وهل تجاوزت مع مطالبهم تلك؟

الكلمات المفتاحية: الجزائر، النخبة الاندماجية، التجنيد الإجباري، فرنسا، الحرب العالمية الأولى

Abstract :

The end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century AD in Algeria witnessed the formation and crystallization of many elites with different orientations, and sometimes contradictory ones, on top of which are the conservative and integrationist elites, which developed into what has become historically known as the amalgam and the reformist stream, and as far as the sources and sources of the culture of the two parties from the beginning The main factor in shaping their philosophy and their activities, between an integrative stream of Western culture in general and French in particular, is required to modernize the Algerians according to the available tools of Western culture of citizenship in order to be able to achieve its rights, and between a conservative current that sees survival in adherence Algerians clear milestones of their personality, and of Islam and the Arab culture and Islamic rejection of attempts by naturalization and integration.

In addition to these determinants, occasional or external events or issues occurred at the internal or external levels that provoke a kind of debate and debate between the two parties, and they often reveal the truth of each current to the general public in Algeria, as is the case of forced recruitment in 1912 AD, which we will present in This article is the position of one of the two parties regarding it, which is the integrationist trend, through a set of questions. What is the position of the integrationists from the law of compulsory recruitment ? What are the motives for this position, and did the integrators achieve their goals from this position ? How did the French authorities deal with these and did they respond to their demands ?

Key words: *Algeria, the integrationist elite, forced recruitment, France, World War I*

مقدمة:

إننا ومنذ البداية وعندما نتناول بالبحث قضايا النخبة الجزائرية عامة والنخبة الاندماجية بشكل خاص نجد أنفسنا في حاجة ماسة للتحكم في المصطلحات والمفاهيم خشية الخلط بين ظاهرة النخب في عمومها و النخبة الاندماجية ذات التوجه التغريبي أو التجديدي بشكل خاص ، لاسيما خلال الربع الأول من القرن العشرين في الجزائر (1900 – 1925م) مما يستوجب في كل الحالات إرفاق مصطلح النخبة بما يسمح للقارئ والباحث بإمكانية تصنيفها وتحديد طبيعتها، كقولنا (نخبة محافظة) أو (نخبة اندماجية) أو (نخبة مجددة) وغير ذلك من التصنيفات الممكنة.

فمن الخطأ بما كان إغفال قطاعات أخرى من الجزائريين كانت ذات مستوى ثقافي جيد ، تحصلت عليه من خلال مزاوله التعليم في داخل الجزائر ، ولو بشكل سري ضمن ما توفر بصعوبة من زوايا أو مدارس أهلية هنا وهناك ، أو من خلال الهجرة خارج الجزائر ، لمتابعة التعليم في مجموعة من

المراكز الثقافية ذائعة الصيت آنذاك والتي كان كثيرا ما يقصدها طلبة العلم من الجزائريين ، مثل جامع القرويين في فاس المغربية ، أو جامع الزيتونة في تونس ، أو الجامع الأزهر في مصر ، دون أن ننسى بلاد الحرمين وبلاد الشام التي شهدت هجرة جزائرية هامة بعد توقف مقاومة الأمير عبد القادر وإقامته فيها، وكلها مراكز كانت توفر مستوى طبيا من التعليم ذي التوجه العربي الإسلامي ، لتتكون بذلك نخبة محافظة تولت دورا طلائعيا في الحفاظ على مقومات الشعب الجزائري ، أمام رياح التغريب والفرنسة التي ستحملها مشاريع فرنسية مختلفة مع بدايات القرن العشرين ، لاسيما مع بداية الهجرة الجزائرية نحو فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى (1914- 1918 م) ، خلافا للهجرات السابقة ما بين (1847- 1911 م) والتي كانت نحو المشرق العربي والعالم الاسلامي.

1- النخبة: المفاهيم والدلالات المختلفة

إن مصطلح (النخبة) يشير بمفهومه العام إلى جماعة من الأشخاص الذين يشغلون مراكز النفوذ والسيطرة في مجتمع معين (محمد عاطف غيث، د ت ن : 155) ، أي هي أقلية ذات نفوذ تسود جماعة ثم أصبحت كمفهوم أدخله عالم الاجتماع باريتو إلى مجال أكبر حجما (أحمد زكي ، 1986: 129) العلوم الاجتماعية ليشير ب لمجموعة من الأفراد البارزين في مجال نشاط ما بغض النظر عن كون النشاط فكريا أو سياسيا أو اقتصاديا، و هم أيضا أولئك الذين يملكون في نفس الوقت تأثيرا في تشكيل قيم واتجاهات القطاعات التي يمثلونها في المجتمع (السيد عبد الحليم الزيات، 1990: 239). إذن فمفهوم النخبة كان مفهوما سياسيا ارتبط بالحكم، «والنخبة الحاكمة أو النخبة المركزية التي هي القلة المختصة بمهمة رسم السياسات العامة واتخاذ القرارات السلطوية الملزمة، في حين تقوم الأغلبية أي المواطنون بالالتزام بتلك القرارات والقوانين الصادرة عنها وتنفيذها» (السيد عبد الحليم الزيات ، 1990: 239).

وعليه فإن التعاريف الحديثة للنخبة لم تركز على الأفراد الذين يشغلون مواقع داخل هذه النخبة وإنما ركزت على قضية السيطرة على زمام القوة سواء في المجال السياسي العام أو الميادين الخاصة أي النخب الاجتماعية والثقافية والإدارية ، لهذا نجد أن للنخبة تأثير كبير في عملية تكيف المجتمع وتطوره، وانفتاحه أو انغلاقه أمام الأوضاع المستجدة، لقد ظهر مفهوم النخبة في إطار النقاش حول أشكال اللامساواة الاجتماعية التي أفرزها النظام الرأسمالي (أحمد زايد ، 2005 : 09) ، ثم اتسعت النظرة في مفهوم النخبة لتشمل ميادين أخرى غير السياسية كالاقتصاد والجيش والفكر هذه الميادين كلها تتشابك لتخلق مجال قوة يمكن للنخبة من خلاله ممارسة السيطرة في المجتمع.

بذلك فقد أمكن الحديث عن نخب اجتماعية غير النخب السياسية المعتادة، أي بعيدة عن النفوذ السياسي ولكنها تمارس نفوذا آخر لا يقل اهمية عن سابقه، هو النفوذ الاجتماعي داخل ميدان معين من الميادين الاجتماعية المتوفرة ولمتاحة له، وبالتالي فهي تتحرك في مجال بعيد عن مجال

حراك النخبة السياسية وهو المدينة، القرية، المؤسسة، أو أي تنظيم آخر من الأفراد وتبأرى هذه النخب خارج دائرة القوة المركزية (أحمد زايد، 2005: 11) وهنا ظهرت مفاهيم النخبة المهنية، المدنية، العسكرية، الريفية، الحضرية.... ولا يمكن إنكار تشابك هذه النخب فيما بينها رغم أنها تبدو نخبا اجتماعية بعيدة عن المجال السياسي إلا أنها في تبادل مستمر معها للأدوار.

2- النخبة الجزائرية البدايات والتوجهات :

أما فيما يخص الجزائر فقد شاع مصطلح النخبة في بداية القرن العشرين كغيره من المصطلحات الاستعمارية التي احتلت المقام الأول في الأدبيات المتداولة وضمن الكتابات الصحفية والنقاشات السياسية والثقافية المختلفة آنذاك ، ومن هنا فان المصطلح الجديد دخل الأدبيات التاريخية والسياسية في الجزائر مع الربع الأول للقرن العشرين بشكل واسع التداول في الخطابين الشعبي والرسمي، ولكن ذلك لا ينفي وجود نخب جزائرية ورموز للثقافة والنضال السياسي بأساليب متعددة قبل هذه الفترة بل ومنذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830 م)، وهو ما يحيلنا إلى شخصية حمدان خوجة أو نضال جماعة الحضر مع بداية الاحتلال.(أبو القاسم سعد الله، 2007: 105-106) مع بداية القرن العشرين برز نوعان من النخبة التي مارست نشاطها ضمن حقل الثقافة والسياسة: نخبة تأثرت بحوثيات الثقافة الفرنسية وحمل بعضها ولو على قلتهم الجنسية الفرنسية، أي متخلية بذلك عن مقتضيات الشريعة الإسلامية واستبدلتها بالقانون الفرنسي وذابت في أتون الحضارة الغربية والثقافة الفرنسية بشكل واضح واختارت اللغة الفرنسية كأداة للتواصل والتفكير والتعبير ولم تترك فرصة إلا وجاهرت بولائها لفرنسا وقضاياها و من أبرز رموز هذه النخبة الاندماجية التغريبية أمثال بن التهامي، والطبيب المرسل، وعمر بوضربة وغيرهم.

و النخبة الثانية بقيت محافظة على أحوالها الشخصية الإسلامية وتمسكت بهويتها الوطنية العربية الإسلامية، لغة وعقيدة وحافظت على صلاتها وروابطها بالبلاد العربية مشرقا ومغربا والعالم الإسلامي كامتداد طبيعي ومجال حضاري وتاريخي للجزائر العربية المسلمة رغم احتلالها وسعي المستمر إلى فرنستها وهو المجال الطبيعي الذي ترى أنه لا يمكن الانفصال عنه ونذكر من هذه النخبة المحافظة وحتى تلك التي كانت مزدوجة التعليم واللغة مثل: محمد بن أبي الشنب (عادل نويهض، 1980: 189)، وعبد الحليم بن سماية (أبو عمران الشيخ: 1995: 44)، والمولود ابن الموهوب وغيرهم (أبو القاسم سعد الله، 2010: 235).

3- قانون التجنيد الإجباري يرسم الحدود النهائية بين المحافظة والفرنسة:

كانت مختلف النخب الجزائرية حتى الحرب العالمية الأولى تنشط من خلال الجمعيات الثقافية التي أسست العديد منها في كبريات المدن الجزائرية مثل الجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران وتلمسان... الخ، أين كانت تقيم فيها العديد من المحاضرات والندوات بغية تثقيف الشباب الجزائري

واطلاعهم على ما يحدث في العالم من تطورات مختلفة أو من خلال الصحافة التي بدأت ترى النور شيئاً فشيئاً مع بدايات القرن على يد الرواد من أمثال عمر بن قنور وعمر راسم وأبي اليقظان وغيرهم.

وقد ركزت النخبة الاندماجية في معظم نشاطاتها على المنداة بتطبيق الادمج الفعلي والحقيقي عليهم كجزائريين أي تطبيق المساواة في الحقوق والواجبات وإلغاء القوانين الاستثنائية كقانون الأهالي والمحاكم الرادعة، وطالبوا بالتمثيل النيابي وتوسيعه، ومساواتهم في الضرائب والتعليم وفرص العمل كأداة تضمن انصهار الجزائريين الكامل ضمن فرنسا (الأم).

وجاء قانون التجنيد الإجباري ليمثل فرصة سانحة لهذه النخبة المتفرنسة لتعرب عن حجم ولائها لفرنسا بدعوة الجزائريين للانخراط الجماعي في الجيش الفرنسي والدفاعي عن فرنسا باعتبارها الوطن الأم الذي يجب الدفاع عنه، والعجيب أن هذه النخبة تخيلت أن فرنسا سترد للجزائريين هذا الجميل بإصلاح أحوالهم وتطوير بلدهم ومجتمعهم على كافة المستويات فهل كان لهم ذلك؟

لا يمكن إغفال التأثير الواضح للتطورات الخارجية في نشأة وتكوين النخب الجزائرية خلال الربع الأول للقرن العشرين والذي شهد أحداثاً بارزة كان من أهمها وصول الاتحاد والترقي إلى السلطة في شخص مصطفى كمال أتاتورك سنة 1908 م وما صحبه من تبني هذا الأخير لسياسة العلمنة والتترك التي انتهت بإلغاء الخلافة سنة 1924 م.

كما كان للاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب بالغ الأثر على النخبة لا سيما المحافظة منها ، دون أن ننسى حدوث ثورتين بارزتين شرق وغرب الوطن العربي وهما ثورة الشريف حسين سنة 1916 م ضد العثمانيين وثورة الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي ضد الأسبان والفرنسيين بين 1921 – 1926 م وما عرفه الحدثان من اهتمام واضح لدى النخبة الجزائرية، لكن الدارس لتلك الحقبة يدرك تماماً أن الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918 م كانت أبرز الأحداث المؤثرة في تطور النخبة الجزائرية والاندماجية بشكل خاص خاصة مع احتدام النقاش حول قضية التجنيد الإجباري ومدى إمكانية استفادة الجزائريين منه ، وهل تستوجب مشاركة الجزائريين مع الفرنسيين إدماجاً لهم ، مما يعني تناقضاً مع مقتضيات أحوالهم الشخصية .

وهكذا وفي ظل احتدام هذا النقاش نخبويًا وجماهيريًا، تشكلت في الجزائر حركة الشبان الجزائريين عبر ثلاثة سبل رئيسة: تونس والقاهرة وإستانبول، حيث كان قوامها بعض الأطباء والحقوقيين وحملة ليسانس جامعية ومدرسين من الجزائريين، لكن أغليتهم تشكلت من صغار موظفي الإدارة العامة والعدالة والتعليم، في حين تشكلت أقليتهم من ممثلين للبرجوازية التجارية المرتبطة بالسوق الاستعماري. هذه المجموعة غير المنسجمة، المتولدة عن الأقلية الهزيلة للذين تلقوا تكويناً فرنسياً

حاولت على غرار الشبان الأتراك والتونسيين، استلاف وسائل وشعارات القوة الاستعمارية، لقد كانت تبحث عن المساواة عن طريق التماهي مع الفرنسيين (أحمد رضوان شرف الدين، 2004-2005: 29). ينتمي أغلب من عرف بالشبان الجزائريون إلى فئة تخرجت من المدارس والجامعات الفرنسية، أين تأثروا بالثقافة الغربية وقد كانوا عموما من عائلات ميسورة الحال يمارس أفرادها وظائف لدى السلطات الفرنسية سواء مدنية أو عسكرية فقد كان جلمهم من المحامين و الأطباء والمعلمين والضباط العسكريين، وقد حملت هذه التسمية نوعا من التمييز لهم داخل النخبة نفسها، باعتبارها تجمع التيارات المحافظ والاندماجي، فهي هو أحد منتسبي هذه الفئة من الجزائريين يعرفها قائلا إنها: «ثريات الجزائريين المتخرجين من الجامعات الفرنسية والذين كانوا قادرين بأعمالهم، أن يصعدوا فوق الجماهير وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة الحقيقيين» (104: Benhabiles, 1914)، أي أولئك الذين أصبحوا يشبهون الأوروبيين في كثير من مناحي حياتهم حتى وصفهم المؤرخ الفرنسي لوري بوليو بأنهم أولئك (الجزائريين المتأوربين). (Leroy Baulieu, 1906: 60-62) ومما يلاحظ أن هؤلاء الشبان لم يشكلوا حزبا سياسيا منظما بل كانوا ينشطون ضمن نوادي أو جمعيات ثقافية مثل (الراشدية) التي تأسست بالعاصمة، أو عن طريق الكتابة في جرائد مثل (الإسلام L'Islam) و(الرشيدي) (Rachidi).

وقد تبنت هذه الفئة من الجزائريين الثقافة الغربية وأسلوب عيش الغربيين ومبادئ الديمقراطية والعدل والمساواة الفرنسية كنموذج للمجتمع الجزائري المأمول، لكنهم كانوا أحيانا ما يفرقون بين فرنسا الديمقراطية التي ترمز لها الثورة الفرنسية الكبرى 1789م وفلاسفة التنوير الفرنسيين من أمثال مونتسكيو وجون جاك روسو وفرنسا الاستبدادية التي يمثلها مرتكبوا الجرائم ضد الجزائريين أمثال بيجو وكلوزيل ورائدون وغيرهم، وكثيرا ما نراهم يستنجدون بالأولى ضد الثانية وبالفرنسيين الليبراليين والجمهوريين الأحرار ضد المستوطنين المستبدين (عباس فرحات، 1962: 106).

كما كانوا في ندواتهم وكتاباتهم في الصحافة كثيرا ما يطالبون بالمساواة في الحقوق السياسية مع الفرنسيين، وبإلغاء قانون الأهالي وغيره من القوانين الاستثنائية التي كانت في نظرهم عنصرية قاسية على الجزائريين، كما كانوا يطالبون بالتمثيل النيابي للجزائريين ضمن المجالس النيابية المختلفة والمساواة في التعليم والضرائب وفرص العلم مع غيرهم من المواطنين الفرنسية وهذا ما جعلهم ينادون بأن الحل الأمثل هو التجنيس بالجنسية الفرنسية، لكن دون اشتراط التخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين، عكس ما نص عليه قانون مجلس الشيوخ لسنة 1865م من أن الجزائري لا يمكنه أن يتحصل على امتيازات الجنسية الفرنسية إلا عندما يتخلى عن حالته الشخصية كمسلم، وكانت مطالبهم بهذه المطالب بأسلوب سلمي متخذين في ذلك سبل التسامح واللين ونايذين أسلوب

القوة والعنف ، حيث اعتمدوا على الصحافة والعرائض وإرسال الوفود، وهي أساليب مقاومة جديدة في الحركة الوطنية الجزائرية.

4- التجنيد مع فرنسا بين فضل الولاء أو جزيل العطاء:

مع بداية الإرهاصات الأولى للحرب العالمية الأولى وبداية الحديث عن فكرة التجنيد الإجباري منذ 1908م، وجد هؤلاء الشبان الجزائريون في قضية التجنيد فرصة سانحة لطرح مجموعة من الأفكار علنيا لاسيما ما يتحقق بوضعية الجزائريين السياسية والاجتماعية ،ومسألة توافق هذا مع الأحوال الشخصية الإسلامية ،وقضية المساواة وغيرها من القضايا التي كثر النقاش فيها ،ومنذ البداية عبر الكثير من الشبان عن آرائهم حول هذه القضايا بما يتناسب مع توجهاتهم السياسية والثقافية سابقة الذكر، فقد صرح مثلا علي بن فخار (أبو القاسم سعد الله ، 2009: 241) «معتزفاً بأن الوضع الذي كان يعيشه الأهالي في هاته المرحلة جد صعب وأن التجنيد الإجباري حمل ثقل عليهم وسيؤدي إلى نتائج خطيرة لأنه لم يمنح لهم بالمقابل أي شيء، إن التجنيد الإجباري يجعل منهم شعباً مُسخراً ومُستعبداً» (La dépêche Algérienne, 1908).

أما عبد الرحمان محمد وهو نائب مالي وبلدي بمستغانم فأبدى رأيه قائلاً: «أن الوقت لم يحن بعد لتطبيق التجنيد الإجباري على الجزائريين، ذلك أنهم خاضعون لوضع خاص تضبطه القوانين الاستثنائية(...) ثم إن الخدمة العسكرية الإجبارية تتطلب أولاً الحصول على الحقوق المدنية الفرنسية التي تتعارض مع الأحوال الشخصية الإسلامية ولذلك فإن تطبيق التجنيد الإجباري أمر مستحيل في ظل الوضع الراهن» (La revue «Indigène», 1908: 404-411).

وفي هذا التصريح بيان واضح لمدى التباين في الآراء بين حركة الشبان أنفسهم ،بين فئة ترى أن في التجنيد تعارض واضح مع الأحوال الشخصية الإسلامية وهم الأقل ،وفئة أكبر منها لا تعير ذلك اهتماما وترى أن الفرصة مواتية للمطالبة بحقوق المواطنة الفرنسية، أو على الأقل للنخبة المثقفة منهم كما أوضح ذلك النائب المالي والبلدي بحسين داي محمد بن صيام قائلاً: «إنني أرى أنه من المستحق مقابل تجنيد المسلمين، توسيع وزيادة الحقوق السياسية بالنسبة إليهم .وبالطبع لن تمنح هذه الحقوق لكل العرب و لا سيما الجنسية الفرنسية، وإنما تمنح للذين تتوفر فيهم بعض الشروط الخاصة.» (La revue Indigène, 1908: 404-411).

وفي كل هذه التصريحات إبراز لمسألتين اثنتين أولهما، انعدام وجه نظرة موحدة لهذا التيار في تلك القضايا المطروحة خاصة فيما يتعلق بالتجنيد والأحوال الشخصية وقضية التجنيس، والمسألة الثانية هي وجود جزء من هذا التيار ممن يرى أنه مختلف عن بقية الجزائريين وأنه أولى من الجزائريين الأهالي في بعض الحقوق السياسية بحكم تكوينه وثقافته الغربية.

5- ولاء لدى النخبة وتشكيك لدى الفرنسيين:

وبعد صدور مرسوم 17 جويلية 1908م الخاص بإحصاء الشباب الجزائري البالغ سن الثامنة عشر وأكثر قصد تجنيدهم، حاول الشبان الجزائريون العمل جماعيا للحصول على مقابل من التجنيد من لدن الإدارة الفرنسية، فشكّلوا وفدا ذهب إلى باريس ليسلم عريضة خاصة بالخدمة العسكرية، والتي نصت على أنهم يقبلون مبدأ الخدمة مقابل حصولهم على الحقوق السياسية للمسلمين الأهالي، وقاد هذا الوفد عمر بوضربة، عضو المجلس البلدي للعاصمة، وقد التقى الوفد النخبوي برئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو في 03 أكتوبر 1908م وقدموا إليه العريضة باسم الجزائريين.

إلا أن تسارع الأحداث وتزايد الحاجة الفرنسية للجزائرية في حربها، دفع الإدارة الفرنسية سواء في المتروبول (Metropole) أو على مستوى الجزائر نفسها إلى التسريع في إصدار القوانين المرتبطة بتجنيد الجزائريين، فكثرت على إثر ذلك التصريحات والتلميحات الفرنسية، ولما أحست مجموعة من الجزائريين الممثلين لتيار النخبة الاندماجية، بتلك التلميحات من الحاكم العام في خطابه في أوت ونوفمبر 1914م بإمكان إحداث إصلاحات على واقع الجزائريين السياسي والاجتماعي بعد نهاية الحرب في حال انتصار فرنسا، فيما إذا كان الجزائريون طرفا في هذا الانتصار فضل العديد من الشبان الجزائريين، الانضمام إلى الجيش الفرنسي والدفاع عن فرنسا، لعل تضحياتهم تشفع لهم بعد ذلك، فتمنحهم فرنسا بعض حقوقهم الطبيعية كمواطنين كاملين الحقوق.

لكنهم كان هؤلاء دائما يعلنون أن هدفهم الأول هو الدفاع عن العدالة والحق ضد الظلم والقهر، فها هو الأمير خالد يصرح: «إن الجزائريين يشاركون في الحرب دفاعا عن الحق والعدالة، ضد طغيان وبربرية ألمانيا» (Emir Khaled, 1978:41).

ومما يؤكد أن الشبان الجزائريين كانوا يهدفون إلى الحصول على بعض الحقوق مقابل مشاركتهم في الحرب إشارة الأمير خالد سنة 1919م: «إن مئات الجزائريين ماتوا من أجل وطن بقي دائما يعتبرهم رعايا، ومن أجل حقوق لم ينالوا منها شيئا، حتى بعد انتصار فرنسا» (Emir Khaled, 1978:41).

ولئن كان موقف الأمير خالد متميزا برفضه للتجنس منذ البداية وإعادته لبعث الجنسية الجزائرية بتشديده في كلامه وسلوكه على هوية الجزائري المبنية على مرجعية الإسلام الممزوجة بالدفاع عن اللغة العربية والثقافة العربية وقضايا العرب والمسلمين، مما جلب ثناء البعض وكرهية الآخر حتى من بين الشبان الجزائريين، فإن مجموعة معتبرة من هؤلاء الشبان أبدوا ولائهم المطلق لفرنسا، فقد صرح الحاج عمار: «نحن نحمل السلاح للدفاع عن الحق وعن بلدنا المهديد فرنسا (...) يا مسلمي الجزائر يجب أن نحمل السلاح رفقة إخواننا الفرنسيين ونحارب من أجل العدالة والحرية»

(Haj Amar, 1914).

أما الصادق دندان فقد عبر عن سعادته بهذه الفرصة التي سمحت له ولرفاقه بإثبات ولائهم لفرنسا قائلا: «إننا سعداء بأننا أخذنا مكاننا في العائلة الفرنسية، إن الحرب فرصتنا لإثبات إخلاصنا لفرنسا» (Denden Sadek, 1914).

كما دعا الشبان الأهالي الجزائريين إلى التزام الهدوء وعدم الإصغاء إلى الداعين للثورة على فرنسا في الجزائر، حيث وجه النائب البلدي بحسين داي، محمد بن صيام نداء للأهالي جاء فيه: «أجيبوا نداء فرنسا وكونوا في خدمتها، فأنتم تدافعون عن الحق وعن قضية إنسانية (...) وحافظوا على هدوئكم ولا تثيروا الاضطرابات (...) إنه من واجبكم حسن الجوار، والله يأمركم بالإحسان إلى الجيران، فأحسنوا إلى جيرانكم لتكونوا مسلمين حقا» (Ben Siam Mohamed, 1914).

ولم ينس هؤلاء أن يبينوا للجزائريين ما ينتظرونه من هذه الخدمات الجليلة لفرنسا فقد جاء في أحد تصريحات الدكتور مرسل: «لقد تربينا مع الفرنسيين، نحن نعرفهم، قد يحدث أحيانا أن نتلقى منهم بعض الضربات و التي نردها لهم وعليه فنحن متساوون، بينما بالنسبة للآخرين (الألمان) لن يكون الأمر كذلك، وعليكم أنتم يا أيها السكان المسلمون في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، أنتم الذين بدون مساومة منكم، قدمتم أبناءكم للوطن الأم، أكيد لن تجازون بنفس الطريقة، لقد تحصلتم من الآن فصاعدا على مكانة مرموقة ضمن العائلة الفرنسية، وعند المحاسبة وبنهاية الحرب بهزيمة أعداءنا والتي لن تتأخر، لن يتم نسيانكم، صدقوني إن ولاءكم لثمانين (80) سنة سيؤخذ بعين الاعتبار ومزيد من الحقوق ستمنح لكم وتحفظ» (Meynier G, 1971:192).

وفي محاولة للرد على اتهمهم بأنهم يحرضون الأهالي على المطالبة بالحقوق السياسية مقابل تجنيدهم وهو ما يخدم ولائهم البديهي لفرنسا، كما فعل الكاتب الفرنسي (أوكتاف ديبون)، مفتش عام على مستوى البلديات المختلطة الذي اتهم الشبان بإثارة الأهالي لكي يطالبوا بالتعويض السياسي على الخدمة العسكرية (Octave Dépont, 1921:11) نفى بعض الشبان تلك التهمة عنهم، ونفوا أي علاقة لهم بالجامعة الإسلامية، مقابل ولائهم لفرنسا وقضاياها، ففي رسالة للمحامي الحاج سعيد إلى أصدقائه من جماعة الشبان الجزائريين بين علاقة جماعته بالجامعة الإسلامية قائلا: «إن الجزائريون المسلمون يعتبرون إسطنبول و الخلافة، بنفس الاعتبار الذي يضيفه المسيحيون على روما والبابوية، ورغم اعترافهم-أي الشبان- أنهم قاموا بنشاطات مختلفة لصالح الليبيين ولصالح لجنة الوحدة والتقدم التركية خلال الحرب العثمانية -الإيطالية، لكنها نشاطات أذنت بها الإدارة الفرنسية نفسها» (Ben Habiles, 1914:107).

ومع دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، لم يتأخر النائب البلدي بوهران علي محي الدين في التصريح: «إن موقف الدولة العثمانية لا يعيننا ولا يغير من ولائنا وإخلاصنا لفرنسا شيئا، بل يربطنا بها وبحكومتها أكثر فأكثر» (Le Temps, 1914).

وفيما يخص موقف الشبان الجزائريين، فقد كانوا في رأيه صادقين نحو فرنسا والدليل على ذلك تصريحاتهم المعادية لتركيا ومن بين الذين يذكروهم الدكتور بلقاسم بن التهامي الذي قاد وفد الشبان سنة 1912 م إلى باريس ومختار حاج سعيد والصادق دندان مدير جريدة الاسلام وجريدة الراشدي التي أوقفت من طرف مسؤوليها للتعبير عن مشاركتهم في مجهود الحرب. ومن التصريحات في هذا الصدد ما جاء على لسان الطبيب القسنطيني مرسلي والتي يتهم فيها على تركيا بسبب دخولها الحرب قائلا: «وهكذا تعاود تركيا السقوط بين مخالب ألمانيا، وهذه المرة لتبقى إلى الأبد، فهي بدل أن تحافظ على حيادها في الحوادث الحالية، تنضم إلى أعداء فرنسا.» ثم يضيف: «لا تعتمدوا علينا فنحن لا نعرفكم لأننا لسنا لا بالشبان الأتراك ولا بأصحاب العمائم، بل نحن فرنسيون مسلمون وسنبقى كذلك إلى الأبد» (Meynier G, 1971: 200).

الخاتمة:

رغم كل محاولات النخبة الاندماجية التقرب من السلطات الفرنسية من خلال خدمتها أو دعوة الجزائريين لفعل ذلك من خلال تشجيعهم الأهالي الجزائريين على التجنيد ضمن الجيش الفرنسي، وحتى محاولتها تمرير ما وصفه بالإسلام الفرنسي و الدعاية له وما وجدته هذه النخبة الاندماجية في الحرب العالمية الأولى الفرصة السانحة، محاولة منها تحقيق إحدى الغايتين، فجزء من هذه النخبة كان صادقا في السعي للحصول ولو على تحسين بسيط لظروف الجزائريين السياسية والاجتماعية مستغلا حاجة فرنسا لتجنيد الجزائريين في هذه الحرب، بينما كان غاية جزء آخر مجرد الرغبة في إثبات الولاء لفرنسا و الاغتناء شخصا أو عائليا أو قبليا من خلال الحصول على الامتيازات أو الوظائف التي يمكن أن تغدق بها السلطات الفرنسية على هؤلاء أو بما توزعه فرنسا من أموال وإعفاءات ضريبية على المقربين منها.

وفي كلتا الحالتين فلا الطرف الأول نال مبتغاه وحرر الجزائر بأية وسيلة كانت في غياب نية فرنسية صادقة لمساعدة الجزائريين من خلال تحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بدل استغلال ثروات الجزائر ومقدراتها البشرية والطبيعية أثناء الحرب، ولا الطرف الثاني حسن من ظروف الجزائريين، أو حظي هو نفسه بتقدير فعلي من لدن فرنسا التي بقيت تنظر له لهم على أنهم أهالي جزائريون مسلمون لا يستحقون شرف المواطنة الفرنسية أو كما قال فرحات عباس في كتابه «Quand un Algérien se disait arabe, les juristes français lui répondaient : non, tu es français. Quand il réclamait les droits des Français, les mêmes juristes lui répondaient: non, tu es arabe!» (Ferhat Abbas, 1962:62).

المراجع

أبو القاسم سعد الله، (2007)، الحركة الوطنية الجزائرية (ج1)، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

- أبو القاسم سعدالله، (2009)، تاريخ الجزائر الثقافي (ج 6)، بيروت: دار الغرب الاسلامي.
- أبو القاسم سعدالله، (2010)، حصاد الخريف، (ط1)، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
- أبو عمران الشيخ، (1995)، معجم مشاهير المغاربة، الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة.
- أحمد رضوان شرف الدين، (2004-2005)، مشروع الدولة-الأمة العروبة عند النخب الجزائرية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، الجزائر، جامعة الجزائر.
- بدوي أحمد زكي، (1986)، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ط2، بيروت: مكتبة لبنان.
- زايد أحمد، (2005)، النخب السياسية والاجتماعية مدخل نظري: مع إشارة خاصة إلى تشكلها في المجتمع المصري»، في النخب الاجتماعية حالة الجزائر ومصر، القاهرة: مكتبة مديبولي.
- السيد عبد الحليم الزيات، (1990) في سوسيولوجيا بناء السلطة-الطبقة-القوة-الصفوة، مصر: دار المعرفة الجامعية.
- غيث محمد عاطف، (د ت ن) قاموس علم الاجتماع، مصر: دار المعرفة الجامعية.
- فرحات عباس، (1962)، حرب الجزائر وثورتها، ليل الاستعمار، المغرب: المحمدية.
- نويهض عادل نويهض، (1980)، معجم أعلام الجزائر، ط2، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية.

-Baulieu Leroy(1906)‘ *La France dans l’Afrique du nord، indigènes et colons*»، *Revue des deux mondes*، Paris. La fontaine.

-Ben Siam Mohamed، (191)“*Jour d’épreuve*»، Akhbar، N13762: Alger.

-Chérif Ben habiles، (1914) ‘*L’Algérie Française vue par un indigène*’، *Alger: orientale press*.

-Denden، Sadek، (1914)“*Notre action dans la guerre*»، *L’Islam*، N204: Alger.

-Emir Khaled، (1987) ‘*la situation des musulmans d’Algérie 1924*’، *Alger: O P U*.

-Ferhat، Abbas، (1962)‘ *guerre et révolution d’Algérie ‘la nuit coloniale*’، *Paris: édition Julliard*

-Hadj، Ammar، (1914)“*Tous pour la France*»، *L’Islam*، N205: Alger.

-La Dépêche، (1908) *conscription des indigènes*، *La Dépêche Algérienne*، N8493: Alger.

-la Revue indigènes (1908)“*les vœux des indigènes*» ‘*la Revue indigènes*»، N30: Alger.

- le Temps، (1914)“*les protestations de loyalisme des Musulmans d’Algérie*»، *le Temps*، N19481،